العلوم الحديثة وخسوف التوحيد

وليم أس. جيتيك

تهدف هذه المقالة إلى تقديم مقاربة فكرية إسلامية عن المباحث التي تعنى بالعلم والدين، ما سيجعلنا غير بعيدين عن المنهج العقلاني الإسلامي. أما بالنسبة للعلم، فسنتناوله من زاويتين: الأولى: العلم بمفهومه الحديث، والثانية: باعتباره سمة ملازمة للمنهج العقلاني الإسلامي الذي يطرح موضوعات تتصل بالدراسات التي تتعاطى مع الحالة العصرية للعالم. وقد تتلمذ على هذا المنهج علماء عديدون في حقل دراسات العالم الطبيعي، والذي أصبح يعرف بـ «المنهج العلمي».

حتى نقف على طبيعة المعارف العلمية التي ظهرت بالتزامن مع المنهج العقلاني الإسلامي، يجب أن ندرس هذه المعارف في بيئتها الأوسع ونقصد بها التعاليم الإسلامية كوحدة متكاملة. وإن إضافة وصف «العقلاني» إلى المنهج يرمي إلى تمييزه نوعاً عن باقي المعارف الكلاسيكية التي توصف بالنقلية. وتنطوي مسألة تشخيص الفوارق بين هاتين المجموعتين من المعارف(العقلية والنقلية) على أهمية قصوى. في الوقت الحاضر ينظر معظم المسلمين إلى العلوم الحديثة بعين واحدة ألا وهي العلوم النقلية، مغمضين عينهم الأخرى المتمثّلة بالدراسات العميقة التي أفرزتها عقول كبار المفكرين المسلمين في عصر الحضارة الإسلامية الزاهر في حقل العلوم الطبيعية.

في المنهج الإسلامي هناك فرق جليّ يميّز المعارف العقلية عن النقلية، فبينما تعتبر المعارف النقلية التركة التي توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل، لا يمكن للمعارف العقلية أن تقطع هذا المسير وتحذو حذو المعارف النقلية؛ لأنّها تتحلّى بطبيعة متجدّدة هي نتاج إبداعات كل جيل ومواهبه الخلاقة.

ومن الأمثلة الحيّة على المعارف النقلية: اللغة، القرآن الكريم، الأحاديث الشريفة، وكل ما يجب القبول به على صورته الأصلية، فلا يمكننا، مثلاً، إدراك القرآن من دون وجود النصّ، وبعد نزول النصّ عن طريق الوحي، لا يمكن المساس به أو تغييره، وإن تعدّدت طرق تفسيره.

أما بالنسبة للمعارف العقلية، فلها طبيعة مختلفة، والمثال الشائع لها هو علم الرياضيات، فعلى الرغم من أنها انتقلت إلينا عبر الأجيال السابقة(نقلية-انتقالية)، إلاّ أنّنا لا نستطيع القول بأنّ ٢+٢=٤ فقط؛ لأنّ المعلم هكذا يقول. الذهن البشري بمفرده قادر على اكتشاف المعادلات الرياضية، ووجود الكتاب والمعلم هما عاملان مساعدان في تبسيط الفهم. وإذا تلقّى الذهن هذه العلوم، لا يعود بحاجة إلى المصادر الخارجية. إنّ التصديق بالعلم هو بسبب احتوائه الحقيقة، فصدقيته من البديهيات، بعبارة أخرى: في حال إدراك العلم يصبح غير قابل للتفنيد؛ لأن لا أحد بمقدوره تفنيد وعيه.

على غرار الرياضيات، يمكن للإنسان إدراك منظومة العلوم العقلية في أعماق ذاته، في حين يكون دور المنهج المقرّر والأستاذ هو توسيع مدارك استيعاب الطالب، وتنتفي الحاجة إليهما عندما تستقر حقيقة العلوم العقلية في أعماق المتعلم ويستيقنها. العلوم العقلية قابلة للكشف من خلال النشاط الذهني المحض، ولا حاجة للنقل والانتقال في علوم كهذه؛ أي أنّ الإنسان بفطرته يتمتّع بقدرات تمكّنه من كشف الحقائق العقلية لطبيعة الأشياء كما هي، على الرغم من أنّ العلوم العقلية في طور التطبيق تحتاج إلى الانتقال في عملية الإطلاق، ومع هذا، قليلون هم الذين يستطيعون التوصّل إلى هذه المرحلة بمفردهم، دون الاستعانة بتجارب خبراء هذه العلوم.

يعدّ علم الشريعة من أوضح الأمثلة على العلوم النقلية في المعارف الدينية، وهو الذي يحدّد إطار العمل الديني ومنهجه. مثلاً، لماذا يصلّي معظم المسلمين في مواقيت خمسة ؟ والإجابة الوحيدة عن هذا السؤال هي؛ لأنّ الله تعالى أمر بذلك. وهنا، يستحيل على العقل

كشف كنه الأوامر الإلهية بالاعتماد على قدراته الذاتية، من دون الرجوع إلى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة التي تناقلتها الأجيال. والعلوم العقلية لا تساعدنا على فهم علّة أمره سبحانه وتعالى بأن تكون الصلوات في مواقيت خمسة وليس ثلاثة أو ستة مثلاً، فأسلوب التفسير هنا تعبّدي صرف.

بعبارة موجزة: في ما يتّصل بالمعارف النقلية الدينية، يعكس الاستدلال الابتدائي الحقيقة القائلة: «إنّ الله أمر بذلك»، بينما في المعارف العقلية يكون منشأ الاستدلال الابتدائي الحقائق البديهية الابتدائية.

ويتمازج هذان النمطان من المعارف في أعماق الروح الإنسانية، ليشكّلا ارتباطاً تكاملياً لا تضادّياً، وهو أمر يسلّم به الكثيرون من المفكّرين المسلمين؛ حيث يرون أنّ الإيمان بالمعارف النقلية المقرون بالتطبيق العملي يعدُّ من أهمّ أركان الفهم العقلي. وكان يقال بالنسبة لبعض فروع المنهج العقلاني: إنّ المعارف النقلية ضرورية في تفعيل الطاقات الكاملة للعقل الإنساني.(١)

إنّ السبيل الأمثل لتحديد الفرق بين المعارف العقلية والنقلية هو التدقيق في اصطلاحي التقليد والتحقيق. فالتقليد هو اتّباع صاحب العلم وانتهاج الوسيلة الفضلى في الفهم العقلاني. الأطفال، مثلاً، يتعلّمون اللغة بتقليدهم للكبار، والمسلمون أخذوا القرآن الكريم والطقوس الإسلامية عن النبي الكريم(ص) وصحابته العظام.

أما بالنسبة للعلوم العقلية، فإنّ الوسيلة الوحيدة لتلقّيها هي المعرفة والتصديق. بعبارة أخرى: لا يستطيع أحد الحصول على حقيقة الموضوع العقلي دون إثباتها لنفسه أولاً وبواسطه(اليقين الداخلي). فالإنسان يستطيع تعلّم معادلة رياضية من خلال الحفظ، لكنّه وببساطة يكون مقلّداً للآخرين ويصبح ذلك العلم غريباً عنه، إذا لم يتمثّل تلك المعادلة بكل جوانبها في أعماقه، جاعلاً من ذلك العلم طبيعة ثانية له.

وللمفكرين المسلمين رأي في هذه المسألة، فهم يقولون: إنّ تقليد القرآن الكريم والرسول العظيم(ص) في العلوم النقلية واجب، أمّا في حالة العلوم العقلية، فإنّه غير مقبول بتاتاً، على الرغم من أنّ هذه العلوم وصلت إلينا من خلال التقليد الطبيعي للعلماء المسلمين الأوائل. في هذه المنطقة العلمية يجب أن يمثّل التقليد الخطوة الأولى لا أكثر؛ لأنّ العقل له قابلية الإدراك والفهم حتى من دون الاستعانة بالعلوم النقلية، وعلى أولئك الذين يملكون هذه القابلية يقع واجب الوصول إلى المعرفة بالجهود العقلية، والتحرر من أسر التقليد لعلوم الآخرين.

باختصار، يوجد نوعان من العلم، ولكلٍّ منهما منهجه الخاص، فالمنهج العام للعلوم النقلية هو التقليد، أما العلوم العقلية فتتأسس على التحقيق. فأستاذ الفقه ـ أحد العلوم النقلية ـ قد يحصل على درجة الاجتهاد، لكنّه مع ذلك ليس بمحقق.

فعلم المجتهد مرتبط بتوضيح مسائل الشريعة عن طريق تفسير القرآن والحديث، وليس بوسعه الحصول على القرآن والسنّة دون الحصول على مصادر الوحي الموجودة. بينما نرى العكس في حالة المحقق، فهو غير مقيّد بالعلوم الشرعية، بل ارتباطه بالعلوم العقلية.[٢] وكل ما يعلمه المحقق يؤمن به؛ لأنّه أصبح بديهياً عنده.

إنّ صدق العلم وكذبه ليس له علاقة بالقرآن الكريم أو السنّة، نفرض هنا أنّهما (القرآن والسنة) فرعان من العلم متباينان، وأنّ التقليد نهج خاص بالعلوم النقلية والإثبات نهج مثالي في العلوم العقلية، فإذا قام الناس بتعلّم العلوم العقلية ثم لم يستطيعوا التحقّق منها في أعماقهم (أي لم يحصل لديهم يقين بها)، يكون إذن ما تصوّروا أنّه علم مجرّد ظنّ ليس إلاّ(أي ظلّ العلم والمعرفة وليس حقيقتهما)، وهذا ما يطلق عليه الجهل المركّب؛ أي أنّهم جاهلون بجهلهم.

فالجهل المركّب آفة الروح الإنسانية؛ لأنّه يغلق الباب بوجه العلوم والمعارف، فحينما يعتقد الإنسان أنّه عالم لن يحمّل نفسه أعباء التعلّم! والسبيل الوحيد لحل معضلة الجهل المركّب هو الإحساس بالجهل، ليتحوّل الجهل من مركّب إلى بسيط، ومن ثمّ يُعالج بطلب العلم.

وبعبارة موجزة: حتى وإن لم يكن في الذهن أيّ تصوّر عن المنهج العقلاني، يجب أن نلتفت إلى هذه النقطة، وهي: أنّ الهدف الأساس من وراء المعارف العقلية هو التحقيق، وهو معرفة طبيعة الأشياء عن طريق البرهان ومعرفة حقائقها من قبل الإنسان وفي أعماق نفسه. ولو كان العلم تخزين آراء العلماء والمفكرين واجترار أفكارهم، لأضحى العلم تقليداً فارغاً من أي تحقيق.

يتّضح مما قلنا أنّ معظم الناس يبنون آراءهم على العلوم المنقولة عن الآخرين، وليس على العلوم العقلية. بعبارة أوضح: إنّ آراء معظم الناس تتشكل مما خُزِّن في ذاكرتهم من دروس المدرسة، ومطالعة الكتب ومشاهدة التلفزيون أو مما سمعوه من الآخرين، فهي إذن علوم غير مبرهنة في دواخلهم، ولم يجر التحقّق بشأنها. ومن المتيقن، أنّهم لا يحملون ما يعتقدون أنّهم حاملين له، ويعدّونه بمثابة معتقدات أساسية. للعلم الكلاسيكي منابع

مختلفة يمكنه الاستقاء منها، من جملتها المناهج الحديثة في التعليم، والتي حمل رسالتها أشخاص من أمثال **داروين وفرويد وأينشتاين**. إذا تيقّن المرء أنّ مصدره في التقليد مرجعاً صادقاً، مع ذلك، سيحتاج بالتأكيد، إضافة إلى ذلك المرجع، إلى التحقيق في مجال اعتبار ومصداقية العلوم النقلية.

عود إلى تعريف العلم:

قبل متابعة البحث حول العلاقة بين المنهج العقلاني الإسلامي والعلوم الحديثة، لا بأس من ذكر ملاحظة تتعلق بكلمة العلم، من حيث جذورها واشتقاقاتها. فيمكن إطلاق هذه الكلمة على أي معرفة، لكن من ناحية علاقتها بالدين، نستنبط منها معنى جهود العلماء المعاصرين في ميادين الفيزياء وعلم الأحياء وعلم الأرض. بمعنى أنّنا نعني بالكلمة العلوم التجريبية التي نحصل على نتائجها بالأساليب العلمية.

لذا، وفي ضوء هذا المعنى للعلم، يجب أن نصبّ اهتمامنا على حقيقة «النهج العلمي» الذي يعرّفه الفيزيائي والناقد الاجتماعي بأنّه عملية وضع العلم في مقام الإلهيات، والتكنولوجيا المتسارعة الخطى في مقام الدين، ليصبح «النهج العلمي» يوماً بعد آخر نافذة على العالم، وليكتسب نوعاً من الصدقية شبيهة بتلك التي كان يحظى بها النصّ الديني. على الرغم من أنّ عدداً كبيراً من الفلاسفة والكتّاب ينتقد الأسلوب العلمي في زمن الحداثة، إلاّ أنّه لا تزال هناك أعداد كبيرة من شعوب العالم ومن بينهم المثقّفين وأولئك الذين يتمتّعون بفهم أفضل، يرون في المعرفة العلمية السبيل الأوحد الذي يمكن الاعتماد عليه. وتتبنّى الثقافة العامة الغربية ـ وبالتبع الثقافات المشابهة لها المنتشرة في العديد من المجتمعات الإسلامية ـ قراءة ترى أنّ «النظريات العلمية» هي عين الحقيقة، وأنّ لدى العلم الأجوبة الشافية عن أسرار الطبيعة المكنونة. وتصوّر هذه الرؤية الدين في أرقى حالة استعراض تنظيمية عقائدية، حيث يتحسّس الإنسان في ظلّها معاني السكون الروحي والثبات الاجتماعي.

وكان من نتائج الأسلوب العلمي أن مرّت المناهج العقلية الإسلامية من قبيل الفلسفة وعلم الاجتماع والعلوم السياسية في مرحلتي المحاق والكسوف، وذلك بفضل العلم والمؤسسات الأكاديمية الحديثة، ما يعني أنّ المفكرين المسلمين المعاصرين قد تشرّبوا الأسس الحديثة، وبدأوا الخوض في العلم والدين مستعينين بالمصطلحات الغربية بشكل

رئيس، وإذا كان للدين دور ما في حياتهم، فهو دور ضئيل الأهمية. أمّا بالنسبة لمعارف المنهج العقلاني - إن كان هناك وعي تحمله فينظر لها على أنّها السلف العتيد للعلوم الحديثة، هذا الخلف الذي حلّت معارفه بما تحمله من إبهام وغموض محلّ الحقائق.

هناك خطاب فكري في النصوص الإسلامية يقول: «إنّ الدين لا يُقحِم نفسه في المسائل العلمية»، وهي فكرة تلخص مسؤولية الدين في تحديد إطار المعتقدات والآداب. مع ذلك عندما نتأمّل المنهج العقلاني الإسلامي نراه يضمّ معارف متنوعة داخل دائرته، فما نطلق عليه منهجاً علمياً هو في الحقيقة أحد الأنماط التعليمية المتفرّعة من الأساليب العقلية. ومن أجل استيعاب شموليته، يجب أن نستوضح أولاً ما الذي أراد المفكرون المسلمون فعله؟

إذا كنّا نبتغي معرفة مقاصد المفكرين المسلمين، علينا أن نتذكر أنّهم قد سلكوا سبيل التحقيق والمعرفة، ثم بعد ذلك نسأل أنفسنا «أي نوع من العلم يمكن البرهنة عليه»؟ ما هو الهدف الذي سعى المفكرون المسلمون إليه بالاعتماد على أنفسهم ومن أجل أنفسهم، من دون الاستعانة بأي مصدر خارجي؟ وأيّ نوع من الأفاهيم برأيهم لا ينسجم مع الأحاديث النبوية والفلاسفة والفقهاء؟

في البدء، يجب الانتباه إلى أنّ غاية الباحث العقلاني لم تكن جمع البيانات، أو ما يصطلح عليه اليوم بالحقائق، ولم تكن المساهمة في المشروع العلمي أو على الأقل وضع الأساس لبناء معلوماتي بنيوي، بل الغاية كانت تنقية وتهذيب مدارك الإنسان وآفاق فهمه. بعبارة أوضح: إنّ باحثي هذه المعرفة كانوا يسعون إلى تربية عقولهم وتهذيب قلوبهم، ليتمكّنوا من الاستيعاب الأمثل لكل ما يمكن للفهم الإنساني أن يستوعبه، ليستطيع من خلاله بلوغ المعرفة اليقينية والعلم المبرهن. كل طالب علم كان يأمل في التوصّل بنفسه إلى المعرفة العلمية اليقينية، وأن يكشف عن ضالّته بالمعرفة المباشرة وفي أوّل فرصة. ولو كان استعاض عن كشف الحقيقة في أعماقه بكلام أستاذ أو كتاب، لكان مجرّد مقلّد لا أكثر، ومعلوم أنّ التقليد لا ينتج علماً عقلياً بل يفرز علماً نقلياً.

بشكل عام، توجد أربع دوائر رئيسة للتحقيق والبرهنة هي «الرياضيات»، «علم الكونيات»، «علم النفس» و«علم الأخلاق».

الميتافيزيقا هي دراسة للمنشأ، ورأس الهرم في عالم الواقع الذي يؤسس لجميع الظواهر الكونية، عنوان بحثها هو الله سبحانه وتعالى، وهو يسمّى بأسماء أخرى غير شخصية مثل «الوجود» «الضرورة» و«الأول».

علم الكونيات هو علم نشأة الكون وغيبياته، من أين نشأ الكون؟ وإلى أين يتّجه؟ الكون بصورة طبيعية، نشأ من الواحد الأحد وإليه مرجعه، أمّا كيف بلغ هذه المرحلة وكيف سيؤول إليه، هنا يذكّرنا النهج العقلاني بأنّ البرهنة على مسيرة المجيء والرجوع ممكنة.(٣)

ما هو سبب التباين بين البشر؟ كيف يمكن للبشر توظيف المواهب التي حباهم الله بها؟ لو كان الإنسان كاملاً كيف يستطيع أن يصبح ما يريد مثلما يريد؟

وعلى كل حال، إنّ الأخلاق هي الميدان العملي للعقل، كيف يمكن ترويض روح الفرد للاستجابة لأوامر العقل والهداية الإلهية؟ وكذلك تنسيق نشاطاته الروتينية مع الله والعالم وبقية الخلق؟ بماذا تمتاز الروح السليمة؟ كيف يمكن تعديل هذه المزايا لتصبح ملكات روحية؟

النفس ومحوريتها في الاهتمام العلمي

أجد من المهم هنا الإشارة إلى أنّ النفس هي محور اهتمام العلوم الأربعة المذكورة، ولمّا كانت النفس الإنسانية وحدها هي التي تنفرد بمزية إمكانية بلوغ معرفة الله تعالى، إذن، فهي عنصر أساس في المعادلة. والسبيل الذي تسلكه النفس لبلوغ هذه الغاية هو التهذيب الداخلي أي العقل والقلب، ولأجل الشروع بهذا التهذيب يجب أن يعرف الإنسان أولاً طبيعة النفس التي يتعاطى معها. ولا تستطيع النصوص المرجعية أو الخبير أن يعرّفك بخصائص نفسك التي بين جنبيك، ويقول لك من أنت؟ فإن رحلة سبر أغوار النفس تنطلق من الداخل، وليس لأحد من الخارج أن يفعل ذلك، فمعرفة النفس من الخارج تعطينا معرفةً سداها التقليد ولحمتها التبعية، بينما معرفة الإنسان لنفسه هي معرفة تقف على قدمين إحداهما التحقيق والأخرى البرهان. لذا، فلا يمكن تسمية هذا الأسلوب بالمعرفة العقلية، بل هي معرفة نقلية. جميع المعارف في المنهج العقلاني، عقلية كانت أم نقلية، هي أدوات معرفة النفس. فالروح الواعية هي التي تعبّر تماماً عن نفسها، ببيان آخر، إنّ المعرفة التامّة لحقيقة الوجود الذاتي، طريق يفضي إلى معرفة الهدف الإلهي من وراء الخلق والوجود الإنساني. وقد أطلق الفلاسفة على هذه الروح «**العقل الفعال**». هذا العقل الفعّال روح متحوّلة ومتسامية ارتقت قواها النظرية والعملية إلى مرتبة الكمال. بوجود هذا العقل، تدخل النفس في انسجام تامّ مع الله والكون وبقية البشر.

عندما كان جهابذة «المنهج» العظام يخوضون في هذه العناوين الأربعة، كانوا في الحقيقة يكتبون عن شيء مبرهن لهم وصلوا معه إلى شاطئ اليقين، وليس عن مفاهيم مجرّدة وصلتهم عن الآخرين، وكانوا يحملون بشدّة على من يسعى إلى استيعاب هذه المفاهيم عن طريق النقل والتقليد والإجماع العام. الأسئلة العقلانية تتطلب أجوبة عقلانية ترتقي إلى مستواها، والروح الإنسانية هي ملعب لطرح الأسئلة واستيعاب الأجوبة.

جدير بالذكر أنّ كثيراً من الناس لا يملكون القدرة والطاقة أو حتى الحافز لتهذيب النفس ومعرفتها، وأن يسلك هؤلاء طريق العلوم النقلية أمر مفهوم، فعليهم التسليم بالمعارف الإلهية، والسير وراء الوصايا العملية للأنبياء، وهنا يلعب الإيمان دور الشريك المؤثّر في الفهم العقلاني، كما يؤكّد الحديث النبوي الشريف أن العلم نور يقذفه الله في قلب المؤمن يسمح له بالفهم المباشر لما لا يمكن إدراكه، ويعقد ميثاقاً محكماً مع موضوعاته وهي بالمرتبة الأولى الله والقرآن والنبي ويوم القيامة.

يبدو واضحاً مما ذكر أنّ العقل هو المفتاح الرئيس للمنهج العقلاني الإسلامي. وحده النبي ويتبعه العارف الحقيقي الأوحد هما اللذان يستطيعان بلوغ «العقل الفعال» الذي هو روح عرفت كنهها كما أنشأها الله أول مرة. الفطرة بلغة القرآن، منّة الله يضعها في طبيعة الإنسان، والضيف الأول الذي يسكن وجوده، وهي ابتداءً سليمة وعاقلة؛ لأنّها تركّز على مبدأ التوحيد، القلب النابض لكل وحي نبوي، والمؤسّس لعناصر حصول المعرفة. الإشكالية المتمثلة في صراع المرء مع فطرته الطبيعية منشأها الجهل والنسيان، فما دامت الروح غافلة عن ربّها وجاهلة بمعرفته، فلن تعرف ذاتها، ولا يمكن نعتها بالعقل.

عندما يفشل الناس في تفعيل فطرتهم، سيفشلون بنفس المقدار من التعرّف على ماهيتهم، فضلاً عن ماهية الطبيعة، وفي المقابل، كلما مارسوا قدراً من التفعيل عليها، استطاعوا تقمّص فهم مبدئي وجذري حيال الأشياء وحقائقها. بعبارة أخرى: سيلمسون الارتباط الوثيق على حقيقته بين الكون والنفس من جهة وبين الله من جهة أخرى، عندها لن تثيرهم الظواهر والمعاجز. وباختصار، هدف المنهج العقلاني هو مساعدة الإنسان على معرفة نفسه، ومن ثمّ الوصول إلى الكمال الإنساني. وبلوغ هذا الكمال يستدعي من الإنسان اتحاداً بين عقله النظري، وهو النفس الإنسانية العالمة بجميع الحقائق والأسماء التي تعلّمتها من الله تعالى؛ وعقله العملي، وهو العقل الإنساني الذي يخبر كيفية التعامل الصحيح بالاستناد إلى العلوم النظرية.

من وجهة نظر المنهج العقلاني، العلم الصحيح بالشيء هو العلم به في فضاء روحه الملكوتية التي نفخها الله في وجوده بعد خلق آدم (ع) من الطين، وتسمّى أيضاً «العقل». إذا كانت معرفتنا بالأشياء خارج الدائرة الإلهية، فلن تكون هذه المعرفة حقيقية، وإذا تصوّرنا خلاف ذلك فسنقع ضحية جهلنا المركب، وكلما ترسّخ إيماننا بهذه المعرفة، استعصى جهلنا المركّب واستقوى، مع العلم أنّ أي نشاط يتأسس على الجهل - ولا أقول الجهل المركّب تنجم عنه آثار وخيمة على الفرد والمجتمع والإنسانية جمعاء.

وأكرّر، إنه، وطبقاً لآراء أساتذة المنهج العقلاني، ليس بإمكان أحد تفعيل معارفه العقلية بالاعتماد على ما يسمعه من الآخرين أو من مطالعة الكتب، ولا يمكن الوصول إلى ذلك عن طريق لجنة معينة أو تنزيله من شبكة الإنترنت، إنّه صناعة داخلية نابعة من أعماق الإنسان، ولكن مع ذلك، فإنّ الإصغاء إلى حديث المعلم أمر لازم لإدراك الذات الباحثة. عندما نصغي بآذان الروح إلى المعلمين العظام سنكتشف أنّ الموضوعات المشتركة التي تجمعهم كثيرة، وإن تعدّدت لغاتهم في التعبير عنها، وتباينت من خلال استخدام تشكيلة منوّعة من المصطلحات والمفردات. وباستعراض جوانب من هذه الموضوعات تتاح لنا فرصة استيعاب أهداف المفكرين المسلمين وغاياتهم في عصر ما قبل الحداثة.

موضوعات للعلم النقلي

دعونا نتناول عشراً من هذه الموضوعات:

الأول: التوحيد، هو تأكيد وحدانية الله، وهو يعني بالأساس أن الوجود برمّته هو وحدة واحدة؛ أي أنّ كل ما هو كائن بدأ من الله وسينتهي إليه، فضلاً عن أنّ التوحيد كان على الدوام ذا تأثير؛ أي أنّ الله غاية كل شيء في هذا الكون على الإطلاق، اليوم وغداً ودائماً.

الثاني: ثمّة حضور دائم في نظام الخلق يطلق عليه العقل أو القلب أو الروح، وهذا الحضور فيض النور الإلهي. وهذا العقل يحيط بجميع الأشياء؛ لأنّه اللوح الذي يحفظ جميع عمليات خلق الكون والإنسان.

الثالث: أنّ الكون عبارة عن تسلسل رتبي عظيم جرى تنظيمه ليعكس عظمة الحكمة الإلهية، وهو يبدأ من العقل - شعاع النور الإلهي ويختتم به.

الرابع: يقسّم الكون إلى عالمين عالم الشهادة وعالم الغيب. عالم الغيب يضمّ الروح والنور والعقل والوعي، بينما يشمل عالم الشهادة الجسم والظلمة والجهل واللاوعي.

الغيب أكثر قرباً من الله وأصدق واقعية من عالم الشهود الذي يسبح في فوضى عارمة تستعصي على الفهم، وهو أقل الجواهر في الكون. ومن المؤكّد أنّ الفضاء الفيزيقي غير واقعي وليس له أي سيطرة على الفضاء الروحاني، تماماً كما هو الحال مع الخلائق التي لا تملك أيّ سلطة على الله تعالى. ومع هذا، من المسلّم به، أنّ هذين العالمين يتبادلان التأثير فيما بينهما وبأشكال مختلفة.

الخامس: للوجود الإنساني دور منفرد في الكون، فقد خلقه الله على صورته(خلق الله آدم على صورته) وعلّمه الأسماء كلّها؛ ولأنّ الأسماء محفورة في فطرته، لذا، فأيّ شيء موجود في الخارج له صورة في جوهر الوجود الإنساني أو فطرته.

السادس: الغاية النهائية لجميع الأديان والإنسان أيضاً، هي إيقاظ العقل في القلب. فالمعرفة الإنسانية من أي نمط كانت، ليست سوى تشعشع أنوار العقل، حيث السلسلة اللامتناهية من الوعي. وتتباين استعدادات الناس في الارتشاف من هذا النور الإلهي الداخلي، فالمعارف النبوية جرى بيانها لجميع البشر، وتتلخّص في أن يسير الجميع وراء الشعاع الإلهي، إن في هذا العالم أو في العوالم الأخرى، والمنهج العقلاني غايته هداية أولئك الذين يملكون القدرة على الارتقاء بالوعي الداخلي عن طريق البرهان والمعرفة.

السابع: نحن نتساوى مع الأشياء بمقدار معلوماتنا عنها(قيمتنا من قيمة المعلومات التي نحملها) قيمة كل امرئ ما يحسنه، والسبيل الوحيد للوصول بفطرتنا إلى ذرى الكمال هو بلوغ كمال الوعي؛ وكلما زاد إدراكنا وفهمنا، زادت إنسانيتنا، والعكس أيضاً صحيح، كلما هبطنا نحو هاوية الجهل انمحت إنسانيتنا. وتكاملنا الإنساني لا يبتني على وحدة شخصيتنا الفردية، بل إنّ الكمال الإنساني ينهل من الفطرة المشتركة المخلوقة على صورة الله، التي يصطلح عليها بالعقل الفعّال.

الثامن: يجب تربية العقل النظري والعقل العملي بالتزامن وفي خطين متوازيين. فإن مهمّة العقل النظري هي معرفة الأشياء كما هي، ودور العقل العملي هداية الوجود الإنساني نحو أفضل الأعمال والسلوك السليم. ويستطيع هذان العقلان بلوغ مرحلة التكامل إذا ما استعانا بالقدوة الإنسانية الأمثل، والأنبياء هم أفضل القدوات وعلى رأسهم الرسول الكريم محمد (ص)، وبغير الاقتداء بالأنبياء في العلوم النقلية لا يستطيع أحد تسنّم ذروة الكمال.

التاسع: على طلبة العلم أن يختزلوا انشغالهم إلى أقل حدّ ممكن بما أصبح يعرف اليوم

«بالعالم الواقعي»؛ لأنّ هذا العالم في الحقيقة أقلّ واقعية من العوالم الأخرى التي يحتضنها الكون(وهو أخسّ مراتب الوجود)، وكل ما زاد عن الحاجة لحفظ سلامة البدن ـ قليلاً من الغذاء واللباس والمكان فهو إفراط، ويثقل الإنسان في رحلة عروجه نحو العلى.

العاشر: لقد صرف عالم التمهيدات الميكانيكية ـ ولا أقول التقسيمات الإلكترونية ـ انتباه الناس عن أهدافهم، ما أحدث ضرراً في الروح، أقلّها انشغال الإنسان بالتسالي الرخيصة والفارغة، وسيختتم بأعظمها ألا وهو فناء الكوكب، الذي سيؤدي بدوره إلى اضطراب الأرواح الإنسانية.

قصة غريبة:

أرى أنّي أسهبت في الحديث عن التدابير التي اتّخذها المفكرون المسلمون، وبم كانوا يفكّرون طيلة القرون الماضية، والآن اسمحوا لي بسرد حادثة غريبة وقعت لي أثناء عزمي على شرح أهمية المنهج العقلاني الإسلامي. كنت جالساً في حديقة منزلي في نيويورك أتأمّل الزهور، وفجأة ظهر أمامي حيث لا يوجد باب للدخول رجل مسنّ وتوجّه نحوي، ومن فرط تعجّبي انعقد لساني ولم أنبس ببنت شفّة، ولكن بعد أن تطلّعت إلى محيّاه وجدته يفيض حيوية من نوع خاص، فتبادر رأساً إلى ذهني أنّه قد يكون رمزاً من عالم الخيال[٤] كما يطلق عليه في المنهج العقلاني، المهم، توجّه الشيخ نحوي وقال لي بالعربية: **أنا ابن يقظان**، أظنّني أستطيع مساعدتك على حل مشكلتك، وتابع كلامه دون أن يعطيني فرصة للتحدّث، وبعدها تأمّلت في اسمه **(ابن يقظان)** وتملّكتني حالة من الاستغراب وسألت نفسي، يا ترى هذا نفسه **حيّ بن يقظان** الذي كتب عنه **ابن سينا وابن طفيل**؟

في البداية راودتني شكوك كثيرة، من يدري فربّما يكون شيخنا هذا يرتبط برباط ما بتلك الشخصية، على أيّ حال، دعوني أسرد لكم ما قاله لي، وهو: أنّه قد فكّر في العالم الحديث المعاصر، فوجده عالماً محيّراً؛ إذ لم يخطر بباله وهو يعيش عصر النهضة الإسلامية وعنفوانها أن تتطوّر الأمور إلى هذا المستوى، فقد بلغ العلم والمعرفة ذرى التقدّم، وما يبعث على الدهشة والحيرة ليس وفور المعلومات بل ارتعاب العقل لعدم وجود رأي شعبي واضح بعدم أهمية هذه المعلومات، وهذه المسألة تناقض تماماً الغاية من خلق الإنسان. لقد انخفض إدراكهم للموقع الحقيقي لإنسانيتهم بنسبة عكسية مع المعلومات الهائلة التي تصلهم، فكلما زادت معلومات الناس عن هذه الحقائق، قلّ إدراكهم لذواتهم وللعالم من حولهم بنفس المقدار.

عصر النهضة العلمية الزاهر. لم يعودوا يثقون بالقساوسة؛ لذلك أصبح يطلق على القسيس الدكتور، الجراح، عالم الفيزياء، عالم الأحياء، المهندس، عالم الاجتماع، السياسي، المفكر، المحامي، الأستاذ، والخبير. وقد تملّك ابن يقظان العجب عندما علم أنّ الجميع يعتقد أنّ القساوسة الجدد(خبراء الفن) يحملون علوماً مقدسة واجبة الطاعة. لقد جاء ابن يقظان من عالم الديانة إلى عالم الحداثة، وفي أول موطئ قدم له تعرّف على الصورة القاتمة للقساوسة، وهو لم يتعجّب لمشهد الكفاح المستميت للقساوسة من مختلف الفئات لمؤازرة أحدهم الآخر ومؤازرتهم لغيرهم في جمع الثروات والجاه والسلطة والسيطرة على المجتمع، بل صُدِم من تسليم الناس طموحاتهم ومصائرهم لهذا النوع من القساوسة ظنّاً منهم أنّهم سيأخذون بيدهم إلى دروب العلم النيّر والراقي.

كان يخالجه شعور أكيد بأنّه ما من قسّ كان يجرؤ على التملّق والمالأة في العصور الوسطى، وها هو يُصعق لما يراه في عصر الحداثة حيث يقول لي: إنّ الأساليب الغريبة المستخدمة في بعض معابد هؤلاء الأرباب المتعددين أكثر وقعاً في النفس من الأهرامات في مصر. لقد اكتشف سرّ بناء هذه المقابر في مصر الفرعونية للأرباب الذين كانوا يحيون حياتهم الأبدية. لكن ما لم يفهمه بعد هو لماذا يصرّ الناس في عصر الحداثة على بناء المعابد لأربابٍ مثل الطب والتكنولوجيا والبحوث التي تنكشف أخطاؤها بسرعة، والصدمة الكبرى لابن يقظان كانت في العملية الأخيرة التي أجريت للمؤمنين بإله الطب، هذه العملية التي تجرى في كنائس صغيرة تدعى مراكز العناية المركزة.

باختصار، لم يُبهت من الحالة العامة للناس فحسب، بل بُهت أيضاً من أوضاع الصفوف التعليمية، وفي كلتا الحالتين أدرك أنّ الناس قد نسوا الاستفسار عن الأشياء الواقعية، كما ذُهل من رؤيته الناس وهم يضعون أنفسهم في مهبّ الآمال التافهة والجهود الزائفة، ومن شوقهم الجامح نحو الحقيقة الأزلية التي تسمّى الروح (نور العقل الإلهي)، وكذلك تأثّر بشدّة من عدم وجود أي توجّه نحو النظام الرتبي التسلسلي للكون والروح، ومن تسليم الناس مصائرهم لعلوم قساوسة العالم الحديث. لقد تحيّر من تصرّف شريحة من العقلاء في اعتبار التوحيد وكل مسألة تمتّ بصلة للقداسة والعبادة في العصور السابقة أمراً لا يعدو كونه من تلقينات السوء والخداع والأنانية في زمن انعدام العدالة الاجتماعية. ابن يقظان من خلال تأمّله لعالم الحداثة، ساوره قلق من العودة إلى العقل. قلت له: لا يمكنني نقل ملاحظاته وإشكالاته على عالمنا الحديث إلى الآخرين من دون أن يكمّلها بإرشاداته للخروج من هذا المأزق، فواجهني بردّة فعل مثيرة حيث قال: «ألا

تعلم أنّ الحلول تكمن في العيوب، فطريق السلامة واضح لو تدبّرت قليلاً فيما قلته لك».

حسناً، لم يكن المشهد واضحاً عندي، طالبته بالمزيد من التعاليم، فقال: **من لم يكن لديه عقل يستشف به الهداية ممّا قلت، فلا تنفعه الاستزادة. من كان همّه البحث عن قسّ ليقلّده، أو الجري وراء نظام عقيدي آخر ليتبعه، لن تجتمع له وسائل درك المفاهيم العقلانية.**

لقد استعرضت له الحالة بتفاصيلها حتى رقّ قلبه لحالي وقال: ألا أنّي أخشى من أن يكون مخاطبك كموسى (ع) أمام الخضر (ع)[٥]. والآن أقول لك بأنّه عملياً لن يصغي أحد إلى نصائك مطلقاً؛ لأنّ الناس المبهورون «بالحياة الواقعية» قد شربوا من كأس التكنولوجيا إلى حدّ الثمالة.

نصائح ابن يقظان وطرائقه

بعد ذلك قرأ **ابن يقظان** رسالة يقول فيها: يجب أن يكون هدف كل طالب علم البرهنة على علمه بالأشياء، وأن يفعّل عقله الباطني، والمخرج الوحيد لكل فرد أو مجتمع بذل ما في الوسع للحصول على العلم الصادق والمبرهن. للباحث طرائق رئيسة ثلاث:

الطريقة الأولى: تطهير القلب من أدران الجهل المركّب وآثاره السيئة.

الطريقة الثانية: تعلّم العلم الصادق واكتساب الفضائل الأخلاقية والتقوى باتّباع الأنبياء والأولياء وأهل الحكمة.

الطريقة الثالثة: إدراك صدق التعاليم السابقة بالبحث عن أصولها في أعماق الروح الإنسانية. وهذا الأمر سيؤدّي إلى تعميق الجوهر الإنساني عن طريق التعاليم الراسخة الذهنية والعقلية. على قدر اقتراب المرء من الهدف يكون قد نجح في بلوغ الجوهر الإنساني الأصيل والذي هو شعاع من أنوار الملكوت.

ما أثار دهشتي في نصائح **ابن يقظان** هو أنّه على الرغم من حديثه عن تأثيرات عالم الحداثة، إلاّ أنّه لم يضمّن حديثه أي إشارة إلى الحكّام أو النشاطات الحزبية أو المسؤوليات المشتركة أو التكنولوجيا أو شبكة الإنترنت. ويبدو أنّه كان ينظر إلى كل هذه العناصر كحجب تزيد من ظلمة الجهل المركّب. قبل أن يحاول أحد إحياء جوهره الأصيل، عليه أن ينسلخ من جلده. إذا لم يسع المرء إلى بعث الحكمة ـ شعاع الحكمة الإلهية ـ في أعماقه، كيف يمكنه أن يتأمّل في بعث الحكمة بين الحكّام، ومتى ما فُقِدت الحكمة أغلقت أبواب السعادة.

الهوامش

(١) وهنا لا ننسى المنهج النظري الصوفي، والذي يصطلح عليه بالعرفان في المدرسة الإسلامية المتأخرة. وأشهر معلّم لهذه المدرسة على الإطلاق هو ابن عربي، التي حملت بصماته لأكثر من ٧ قرون، حتى انحسر تأثيرها بعض الشيء في القرنين الأخيرين.

(٢) كثيرون هم المفكرون المسلمون الذين يعتقدون بأنّ الهداية النبوية تحتاج إلى قاعدة فهم عقلية سليمة، ويضيفون أنّ الذي يقوم بتفعيل المعارف العقلية تنتسب إليه. الهداية النبوية ضرورية؛ وذلك لأنّ الأنبياء هم المرشدون الصادقون للعلوم النقلية، علاوة على العلوم العقلية. فلم يكن إدراك النبي محمد(ص) نتيجة للتقليد، بل أنّ وسائله كانت الإثبات والتحقيق. للمزيد في هذا المجال، راجع: صدر الدين شيرازي، إكسير العارفين، فصل ٤، الباب السابع(النص والترجمة لوليم جيتيك). الناشر

(٣) هنا أتحدّث بلغة عامة وأدرك أنّه في العصور الأولى، خصوصاً، كانت توجد استثناءات عدة في القوانين العامة. من المعلوم أنّ ابن سينا أشكل في باب المعاد على المعارف النقلية، هو لم يفنّد بقاء العقل الإنساني الفعال بعد الموت حياً؛ لأنّه يستطيع إثبات ذلك، لكنه قال: إنّ إثبات المعاد الجسماني غير ممكن، وطرحت المدارس المتأخرة مباحث عديدة حول المعاد الجسماني، وقد قال ابن عربي، يتبعه في ذلك صدر الدين شيرازي: إنّه يمكن إثبات المعاد الجسماني في تجربة خيالية(في عالم الخيال).

(٤) مع ذلك، يجب القول: إنّ لعالم الخيال منطقتان: الأولى: خيال متصل وهي تمثّل الحالة الداخلية للروح، والثانية: الجزء العياني الخارجي وهو مسرح الرؤيا الصادقة، والذي يسمّى بالخيال المنفصل. والمنطقة الثانية هذه هي التي تجعل من الحقيقة الخارجية هدفاً.

(٥) إشارة إلى القصة القرآنية المعروفة التي تجسّد العلم النقلي الخالي من الفراسة المعنوية. ففي هذه القصة، كلما كان يعمل الخضر بالحكمة، كان موسى يُشكل عليه بما يراه في الظاهر. فعمل الخضر أطلق عليه اسم «التعاليم الفلسفية والعقلية».